الجزويتية والطرائق الاسلامية

ما زال الجزويت منذ نشأت جمعيتهم موضع حيرةٍ لافكار ذوي الالباب ومثاراً للريب في نفوس ارباب السياسة ومبعثاً للقلق بين اصحاب الاديان ومرمىً للسخط من جانب اولي الرئاسة والسلطان وقد تجرّد كثيرون من اكابر علمآء اوربا ودُهاتها للكشف عن كُنه هذه الجمعية وسرّ نشأتها والغاية التي تجري اليها فتفرّقوا في امرها طرائق واحزاباً وقد تشكلت لهم مناظرها وتغوّلت اشباحها فتمثّل فيها لكل ناظرٍ صورة وتخيّل منها لكل مقلةٍ شبح واصبح القادح فيها والناضح عنها كلاهما راكب عميآء أو خابط ليلة ليلآء . وقد وقفنا في مجلة المجلات الفرنسوية على مقالةٍ للمسيو ڤكتُور شربُونّيل بحث فيها بحثاً تأريخيًّا استقصى فيهِ مبدأ هذه الجمعية من اول نشءٍ ظهر منها في سمآء التصوُّر الى ان سال سيلها في البلاد فرأينا ان نجعلها طُرفةً لقرآء الضيآء لما فيها من الغرابة وما تضمنتهُ من دقة البحث واهميتهِ مما يتشوق كل مطالع الى الوقوف عليهِ وهذا ملخص ما جآء في تلك المقالة نوردهُ بتصرفٍ قليل

وُلد اغناطيوس لوَيُّولا زعيم الجزويت وواضع طريقتهم سنة ١٤٩١ وكان مولدهُ في القصر المعروف بقصر لويولا وهو قصرٌ قديم في بسكايا من بلاد اسپانيا واليهِ نسبتهُ . ودخل في اول امرهِ في الجندية فجُرح في احدى المواقع الحربية سنة ١٥٢١ في حصار مدينة پمپلُون فنُقِل الى لويولا واقام هناك الى ان برأ من جرحهِ . واتفق في تلك المدة ان وقع في يدهِ بعض

الكتب الروحية فاكبّ على مطالعتها فنشأ عندهُ ميلٌ الى الامور الدينية وكان بسبب ذلك الجرح قد اصابهُ عطبٌ في احدى رجليهِ منعهُ من العود الى خدمة الجندية فنذر على نفسهِ ان يتجرد بقية حياتهِ لخدمة الدين

ولما تمّ برؤهُ نهض فانطلق الى دير الرهبان البَندِكتان في الجبل المسمى بمُونْسَرّا فزار هناك كنيسة العذراء وعلّق فيها خنجرهُ وسيفهُ ثم اعتزل الى مغارةٍ في مَنْرِيزا وهي مدينةٌ بحيال ذلك الجبل فخلا فيها مدةً قضاها في التوبة والقنوت

وكان في اواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر قد بقي في اسپانيا عددٌ كبير من العرب وكانت العامّة من الاسپنيول وطبقة الاصاغر من السراة يودّون اخراجهم من البلاد وبعكسهم طبقة الكبراء من سراة الدولة فان كثيرين منهم كانوا مصاهرين لهم فضمنوا لهم الامان في البرّ والبحر وكذلك شرلكان كان قد أمّنهم بشرط ان يدينوا لشرائع البلاد التي تحت سلطانهِ وذلك قبل سنة ١٥٢٤ وهي السنة التي امر فيها باجلآئهم من البلاد بعد عرضهم على ديوان الفحص المشهور

والظاهر ان اغناطيوس كان في اول الامر على رأي من يقول بطرد بقايا العرب فكان اول ما خطر ببالهِ من خدمة الدين التي ارصد لها نفسهُ ان يتجرد لمناصبتهم . واتفق في تضاعيف ذلك انهُ بينا كان مسافراً على بغلةٍ لهُ الى مونسرّا صادف في طريقهِ واحداً من اشرافهم وتحتهُ ركوبةٌ فاخرة فتسايرا وتحادثا ثم دخلا في غمار المباحث الدينية لان احدهما كان مسيحياً وقد وقف نفسهُ على خدمة الدين والآخر كان من اصحاب احدى الطرائق

الدينية في الاسلام فاحتدم بينهما الجدال حتى تضايق المسلم فيما يقال ففصل عن خصمه وقد تكلم في حق العذرآء بما يقبح سماعهُ . واذ ذاك وقف اغناطيوس وهو يؤامر نفسيه بين ان ينتقم منهُ للعذرآء أو يتركهُ في سبيله ثم نظر فرأى امامهُ طريقين فأجمع رأيهُ على ان يردّ الامر الى مشيئة الله ويترك البغلة تسير على سجيّتها فان اقتفت اثر الرجل ادركهُ واوقع بهِ والاّ وكلهُ الى الغضب الالهي فسارت البغلة في الطريق الآخر فاتخذ ذلك على ما يقول مؤرخو الجزويت دليلاً قاطعاً على ان الله انما اراد ارسالهُ الى العرب ليدعوهم الى الايمان المسيحي ومن ذلك الوقت شعر من نفسه بانهُ رسول

ولما تقرر عندهُ امر هذه الرسالة لزمهُ ولا جرم ان يتقرب من العرب ويخالطهم . قيل وكان الرجل الذي لقيهُ في الطريق يقصد مدينةً بجوار مونسرّا ولم يكن اذ ذاك مدينةٌ في تلك الناحية الا منرّيزا فلا يُستبعَد ان يكون قد صادفهُ فيها مرةً اخرى فعاودا حديثهما واطّلع منهُ على شيءٍ من امر الطريقة التي كان داخلاً فيها كما انهُ لا بد ان يكون قد لقي غيرهُ من العرب المنتشرين في تلك الناحية اذ كان معظم التجارة في ايدي المسلمين واليهود فجالسهم وباحثهم . وعلى كل حال فالذي يؤخذ من مُجمَل اقاويل الرواة ان اغناطيوس شرع في وضع قوانين جمعيته في منرّيزا وانهُ هناك نشأ لهُ اول خاطر ان يُحدِث في حضن الكثلكة جمعيةً يحذو فيها على مثال الطرائق الاسلامية

ثم انهُ في سنة ١٥٢٣ خرج من منرّيزا ورحل الرحلة المشهورة في تاريخ حياته وان كان مؤرخو هذه العصابة يميلون الى كتمانها وهي رحلتهُ الى فلسطين وبيت المقدس اقتداءً بما يفعل المسلمون في حج مكة وزيارة

قبر النبي فلبث في ارض فلسطين مدة شهرين كان في اثنائهما يتقرب من المسلمين وطوّح بنفسه حتى في اجتماعات اصحاب الطرائق منهم فاوغر ذلك صدورهم عليه حتى اوشك على ما رواهُ هنّين دُكوثيليّاي ان يُفاح دمهُ . على ان تلك الغيرة منهُ على الدعوة الى الكثلكة كانت في غير اوانها حتى ان الفرنسيسكان حرّاس قبر المسيح انذروهُ تحت عقاب القطع من شركة الكنيسة ان يُقلع عن هذا الامر الذي اثار عليهم حنق اصحاب الطرائق الاسلامية وان يرجع الى اوربا

ولما لم يسعهُ الا الامتثال قام وانقلب راجعاً الى اسپانيا وكان الكردينال اكزيمينّاس قد انشأ في ألكالا مدرسةً جامعة لتعليم المتنصرين من العرب وترشيح معلمين لدعوة من لم يتنصر منهم فدخل في تلك المدرسة . ولما كان رجال الفحص المقدّس متيقظين لامر رسالته خامرهم ريبٌ في صحة عقيدته وطلبوا حبسهُ فسُجن اياماً في مُطبَق[1] التفتيش ثم أُطلق فارتحل الى سلَمنْك غير انهُ لم يزل مواظباً على مخالطة العرب فعاد الريب من جهته وسُجن مرةً اخرى بامر الفاحصين و بعد ان لبث في سجنه اثنين وعشرين يوماً أُطلق سبيلهُ بوسيلةٍ لم يُدرَ ما هي فلم يسعهُ المُقام بعد ذلك في ارض التفتيش فخرج من اسبانيا ولحق بباريز فاقام بمونمارتر وهناك شرع في تأسيس الجمعية

وقد تقدم ان الرجل الذي صحب اغناطيوس في الطريق كان من اصحاب احدى الطرائق الدينية وان اغناطيوس حين كان في فلسطين حاول الدخول في الجمعيات الاسلامية . وقد كانت هذه الجمعيات كثيرةً في القرن

(١) سجن مظلم تحت الارض

الخامس عشر والسادس عشر وكثيرٌ منها باقٍ الى هذا العهد نذكر منها ما لهُ علاقةٌ بغرضنا. فمنها الطريقة القادرية وكانت نشأتها في آسيا الصغرى في القرن الثاني عشر وزعيمها سيدي عبد القادر وبه سُمّيت ثم دخلت بلاد اسبانيا فانتشرت فيها انتشاراً عظيماً ولكن بعد فتح غرناطة خرج اكثر اصحابها الى مرّاكش وبقي افرادٌ منها متفرقون في الجزيرة الى ان تعقبهم ديوان التفتيش بأمر شرلكان سنة ١٥٢٤

ومنهم الشاذلية وزعيم هذه الفرقة سيدي ابو مدين من اهل اشبيلية المولود سنة ١١٢٦ وكان من المدرّسين في مدرستي اشبيلية وقُرطبة وسُمّي اتباعهُ بالشاذلية نسبةً الى ابي الحسن الشاذلي ثالث مشايخهم وهو رجلٌ عظيم الحرمة في الاسلام على العموم . وانتشرت هذه الطريقة في عامّة اسبانيا وشمالي افريقيا وكان اصحابها فِرَقاً منها المندانية والرحمانية والخَلْوَتية نسبةً الى الخلوة لانهم يوجبون الخلوة على الداخل في طريقة الشاذلية على ما سيجيء وكان منشأهم في القرن الرابع عشر. واصحاب هذه الطرائق كلها من الصوفية أو الاخوان يجمعها قانون واحد يسمونهُ بالوِرد وارادتهم منوطة بشيخ يتسلط على جميعهم وبمقدّمين هم الموكلون بالزوايا وهي شبيهة بالاديار عند النصارى

اذا عُلم ذلك بقي ان نثبت ان اغناطيوس كانت له خُلطة بعرب اسبانيا واصحاب الطرائق الاسلامية وانهُ اقتبس من قوانينهم وشعائرهم لسنّ قانون جمعيته . ولست اجهل ان محاولة اثبات مثل هذه الدعوى مما يدعو الى الاستغراب وقد تكلف مثل ذلك في القرن السابع عشر والثامن عشر اناسٌ

من خصوم الجزويت فاخطأوا وجه الحُجّة لانهم لم يكونوا يعرفون من اصحاب الطرائق الاسلامية الا طائفة الحشاشين واتباع شيخ الجبل فزعموا انهم انما اخذوا عنهم مع ان الحشاشين كانوا قد انقرضوا من قبل وجود الجزويت بنحو قرنين من الزمن فضلاً عن انهم كانوا اناساً معروفين بالنهب وسفك الدمآء ولذلك ردّ عليهم المنصفون من علمآء التاريخ وابطلوا مزاعمهم. ولست انكر من جهةٍ اخرى انهُ ليس عندنا نصٌّ صريح على ان اغناطيوس اقتبس تعاليمهُ من الطرائق الاسلامية لانهُ لم يعترف بذلك او لأن الجزويت الاولين الذين طالما سدلوا على تاريخ نشأتهم حجباً من اللبس والتزوير طمسوا هذه الحقيقة . على انهُ لا يزال الى اليوم هؤلآء الآباء يحاولون ان يضعفوا الادلة التاريخية التي تظهر من خلال البحث ويزعمون انهُ اذا امكن ان يثبت وجود شيءٍ من الآثار الاخوانية الاسلامية في قوانين الجزويت فمنشأهُ ان الجمعيات الاسلامية كانت تستمدّ احياناً من قوانين الرهبانيات المسيحية وعليهِ فما يوجد من المشابهة بين الاخوانية والجزويتية انما هو مجرّد اتفاق ونزوعٍ الى القواعد الرهبانية القديمة بدون ان يكون احد الفريقين مقتبساً عن الآخر

لكن لا بد لنا هنا من التنبيه الى ان الجزويت يخالفون سائر الرهبانيات المسيحية وان لجمعيتهم طبيعةً خاصة تنفرد بها عن طبيعة الكنيسة الكاثوليكية وما انفردوا بهِ من ذلك هو الذي اخذوهُ عن الطرائق الاسلامية ولا سيما القادرية منها والشاذلية . وبالتالي فاذا كانت الجزويتية تشبه في ظاهرها سائر الرهبانيات الكبرى في النصرانية لان اغناطيوس استمدّ قوانينها من

كتاب سِسْنُروس البندكتاني مدة اقامته بدير مَنْرِيز فان لهذه الجمعية نظاماً وتعليماً خاصين بها هما اللذان يتعرف بهما معنى الجزويتية . ولاثبات ذلك لا بأس ان نقابل بين كلٍّ من الرهبانيات المسيحية والطرائق الاسلامية وجمعية الجزويت في اربعة امور وهي اولاً طريقة الابتدآء وثانياً النظام الداخلي وثالثاً مقام السلطة ورابعاً روح كلٍّ من هذه الجمعيات وغرضها وسنفرد لكلٍّ من هذه المعاني بحثاً برأسه (ستأتي البقية)

زنجبار

بقلم حضرة الكاتب ديمتري افندي نقولا صاحب مجلة الفكاهة
عن كتابٍ لهُ تحت الطبع
(تابع لما قبل)

واما عوائدهم في المآتم فاذا توفي شخصٌ خرجت خادماتهُ للحال وكل واحدة منهنَّ قد عصبت جبهتها بخرقةٍ سوداء وشبكت عشر اصابعها على رأسها وهي تولول وتنوح وتصيح واسيّداه وايتاه ويذهبنَ كذا صارخات من بيت الى بيت من معارف الميت ويطفنَ البلدة كلها وربما صحبتهنَّ خادمات اخر من البيوت التي يمررنَ بها ويزعجنَ النائمين من السكان لانهُ حالما يموت الشخص ولو نصف الليل تخرج الناعيات على مثل ما ذُكر فلا تمرّ ساعة حتى يغصّ البيت بالوافدات من جميع الطبقات ويستمرّ النواح والعويل وينقطع احياناً مدة الليل الى الصباح . وفي هذه الاثناء يحتشد معارف الميت في جانبٍ من المنزل وفي الجانب الآخر المغسلون يغسلون الميت ويسير الخدام لحفر الضريح . وفي وقت غسل الميت وتجهيزهِ تسكت الباكيات